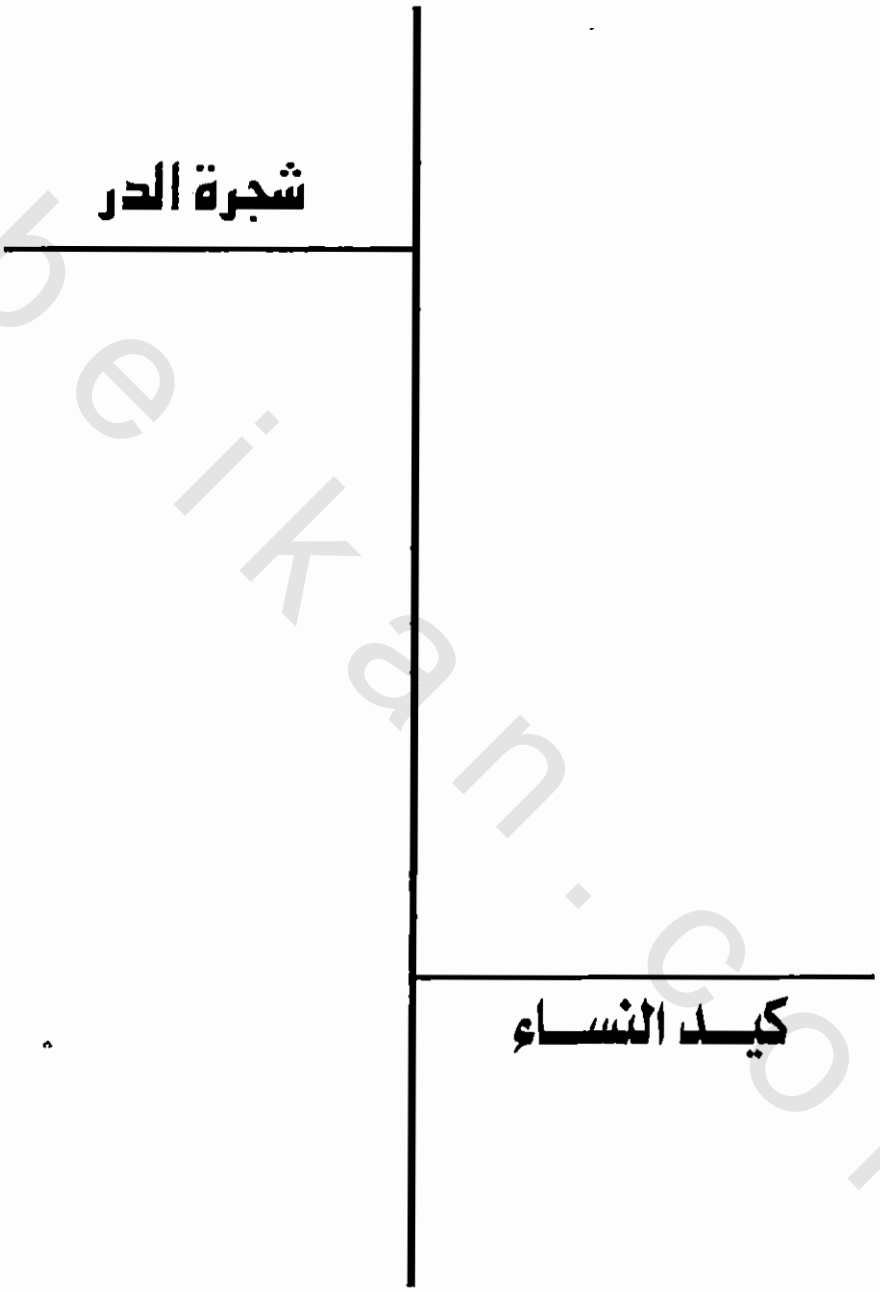

obeikan.com

obeikan.com

شجرة الدر

كانت شجرة الدر جارية تركية أو أرمينية مشتراة للصالح أيوب وحظيت بمكانة عالية عنده فأعتقها وتزوجها وأنجبت له ولدا أسماه الخليل لكنه مات صغيرا .

في عهدها خرج الفرنجة من مصر بعد أسر مليكهم لويس السابع وأخلى سبيله بعد أن أدى الصليبيون الفدية عنه .

أثناء الحملة الصليبية على مصر التي رأسها ملك فرنسا كان يحكم مصر الملك الصالح أيوب وكانت رحى المعركة تدور في المنصورة ، وداهمه المرض واشتدت وطأته وخشى الملك أن يموت قبل أن تنتهى المعركة ويتحقق النصر فتنهار الحالة النفسية للجنود وتقل عزيمتهم ويستغل الأعداء ذلك فعهد لولده (توران شاه) وأخذ العهود على ذلك وقام بالتوقيع على عشرة آلاف ورقة فارغة ليتم الاستعانة بها إذا حدثت الوفاة ويبدو الأمر وكأن الملك لا يزال على قيد الحياة يصدر الأوامر ويعطى التوجيهات .

وبالفعل مات الملك وأمكن إخفاء خبر موته عشرة أيام كانت شجرة الدر تدير فيها شؤون البلاد ولم يكن الأمر بجديد عليها حيث كانت تقوم بذلك في حياة السلطان ، وكانت تخبر كل من يسأل عن السلطان أنه مريض ولا يمكن لأحد أن يقابله .

كان يشاركها تدبير الأمور الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، وأرسلت شجرة الدر في استدعاء توران شاه بأن السلطان سيحضر من دمشق كى يتسلم أمور السلطنة وحضر بالفعل وكان له دور كبير في حرب الصليبيين حيث جدد المصريون نشاطهم ، وأنشأ أسطولا من السفن الخفيفة وتم نقلها إلى فروع النيل السفلى وأخذت تعترض طريق السفن التي تجلب المؤن من دمياط إلى معسكر الصليبيين

حتى تم الاستيلاء على ثمانين سفينة للصليبيين ، وكانوا يتعرضون لخطر المجاعة وانتشرت الأمراض بينهم وتم النصر لتوران شاه وأسر لويس التاسع .

كانت العلاقة بين توران شاه وزوجة أبيه شجرة الدر سيئة ، فقد كانت على ما يبدو تحاول الخلاص منه أو حتى إبعاده عن سدة الحكم وكان هو يعرف ذلك ، لذا كان لا يثق في رجالها ، وهذا ما دفعه للخلاص من حاشية القصر واستبدالهم برجال من خاصته حتى يتفرغ للمماليك الذين كانت تحيط نفسها بهم وتغدق عليهم ليكونوا في خدتها بعد أن انتصر على الصليبيين .

بعد نهاية الحرب طالبها بأموال أبيه وبما تحت يدها من الجواهر وبتسليم السلطة وهذا ما دفعه إلى توعد رجالها وتوعدها ، ولم يكن يدرى أنه بذلك يسير إلى حتفه وأن كيدها سيكون أقوى من جنوده وقواته وقدراته كقائد للجيش الذي انتصر على الصليبيين .

أرسلت شجرة الدر إلى مماليك البحرية تخبرهم بما يضمر لهم توران شاه وتطلب منهم حمايتها واختارت فارس الدين أقطاى أحد كبار المماليك الذين تنكر لهم توران شاه بعد أن كان قد وعده أن يؤمره ولم يف بوعده ، وهو ما دفعه إلى كراهيته والحنق عليه ، ولم تكتف بذلك بل استمرت في البحث عن أعدائه والتآمر معهم للخلاص منه وبالفعل اتفقوا على قتله .

ذات يوم كان توران شاه يجلس بفارسكور كعادته يستقبل زائريه فتقدم إليه واحد من البحرية هو بيبرس البندقدارى الذي صار إليه ملك مصر بعد ذلك وضربه بسيفه فقتله بيده فقطع أصابعه وهرب إلى البرج الخشب الذي نصب له بفارسكور ، فطاردوه ودخلوا وراءه البرج بسيوفهم ففر منهم إلى أعلى البرج ، وأغلق الباب خلفه فخرجوا

وأغلقوا باب البرج من الخارج وأضرموا فيه النار ورموه بالنشاب .

خشى توران شاه أن يحترق داخل البرج المشتعل فألقى بنفسه من فوق البرج والنار مشتعلة بملابسه وتعلق بأذيال الفارس أقطاى واستجار به فلم يجره ، فألقى بنفسه في البحر وهو يصرخ: ما أريد ملكا . . دعونى أرجع إلى الحصن . . يا مسلمون ما فيكم من يجيرنى ويصطنعنى (يشغلنى عنده) لكنهم بدلا من أن ينقذوه ويجيروه سبحوا خلفه وقطعوه بالسيوف ثم سحبوه إلى الشاطئ وتركوه عليه ثلاثة أيام منتفخا لا يقدر أحد على حمله ودفنه حتى شفع فيه رسول الخليفة ، وهكذا كانت مدة حكمه واحد وسبعين يوما .

بعد موته اجتمع كبار مماليك البحرية وأعيان الدولة واتفقوا على إقامة شجرة الدر سلطانة على مصر - لتجنى ثمن مكيدتها - ونصبوا عز الدين أيبك قائدا عاما (أتابكا) للعساكر ووصيا على العرش .

لم يقبل الشعب المصرى أن تنصب امرأة سلطانه عليه ، وقامت المظاهرات وحدثت اضطرابات عديدة في القاهرة ، وأغلقت المدينة حتى لا تتسرب أخبار الاضطرابات والمظاهرات إلى خارجها وتنتشر في كل البلاد ، وكان رجال الدين وراء تلك الاضطرابات المعارضة للسلطانة التي كانت تعتقد أن مماليك البحرية بإمكانهم حمايتها فأخذت تغدق عليهم وتقرب الخاصة والعامة في محاولة منها للحفاظ على الحكم .

علم الخليفة المستعصم العباسى بتولى شجرة الدر شؤون البلاد فأرسل إليهم خطابا يعلن فيه رفضه تولى امرأة شؤون البلاد ، ويتساءل إن لم يكن هناك من الرجال من هو جدير بتولى الأمر فعلم المماليك بخطئهم ولم تجد شجرة الدر حلا بعد رفض الشعب والخليفة وسيلة لتولى شئون البلاد دون أن تكون في الواجهة سوى أن تتزوج من عز الدين أيبك وبالفعل تم الزواج وتنازلت له عن العرش بعد توليها دفة

الحكم سلطانة على البلاد ثمانين يوما .

استوعب عز الدين أيبك الدرس مما حدث لتوران شاه واستعانة شجرة الدر بمماليك البحرية الذين يساندونها وخشى أن يكون مصيره كذلك ، فأنشأ فرقة من المماليك أسماهم (المُعزيَّة) ليكونوا ضد مماليك البحرية الذين أخرجهم من سكنتهم ، وقتل قائدهم فارس الدين أقطاى وظل يطاردهم للخلاص منهم حتى هربوا إلى ملوك بنى أيوب في الشام .

كانت شجرة الدر لا تزال تعتقد أنها السلطانة وأن أيبك ليس إلا صورة تقف خلفها ، وأن تنازلها عن العرش تنازلا صوريا وقد دفعها ذلك إلى إجبار أيبك على هجر زوجته الأولى أم ولده ومنعه من زيارتها ، لكن أيبك في المقابل كان يرفض سيطرتها وتسلطها وكان يسوؤه استيلاءها عليه وحاول مرارا أن يعزلها عن الحكم لكنها كانت ترفض الانزواء وربما ندمت لذلك على تنازلها عن الحكم وقد دفعها ذلك للخلاص منه .

كان أيبك يفكر هو الآخر في نفس الأمر وأعد العدة له بالخلاص من مماليك البحرية ليجردها من سلاحها وبدأ في التحرر منها كمرحلة أولى بالزواج من ابنة بدر الدين لؤلؤ الأتابكى صاحب الموصل ليدعم نفسه خارجيا لكن يبدو أن ذلك كان بداية النهاية لأن جلب ضرة لامرأة مثل شجرة الدر كان لعبا بالنار .

تزعمت حركة معارضة له في الداخل والخارج وساندها بعض مماليك البحرية الذين بقوا في مصر وفاء لها في رفض هذا الزواج ، ولم تثمر حركة المعارضة فقبض عليهم أيبك وأودعهم السجن ، فعادت لاستخدام سلاحها القديم (الكيد) للانتقام من أيبك .

أرسلت إلى الملك الناصر يوسف بهدية ورسالة مع أحد المماليك

العزيزية تخبره فيه أنها عزمت على قتل أيبك والتزوج منه وتمليكه مصر ولكن الناصر خشى أن يكون الأمر خدعة ولم يستجب لطلبها .

أرسل بدر الدين لؤلؤ الذي نمى إليه سر تلك المفاوضات إلى أيبك يحذره مما أزمعت عليه شجرة الدر وأنها تود أن تتواطأ مع الملك الناصر عليه ، وبهذا اتضحت النوايا فهى تريد أن تتخلص من أيبك وهو يريد الخلاص منها والفوز للأسبق في تنفيذ مخططه .

لم يعد المقام مع شجرة الدر أمرا مأمونا وهذا ما دفع عز الدين أيبك للإقامة (بمناظر اللوق) بضعة أيام لتدبير ما ينبغى أن يكون .

أرسلت شجرة الدر إلى أيبك تدعوه إليها متلطفة في ذلك برسالة رقيقة ضمنتها أكذب مشاعرها وأعزب كلماتها ليلعب كيد النساء دوره وانطلت الخدعة على أيبك ، صدق معسول كلامها وهرع إلى القصر السلطانى دون أن يأخذ حذره ربما كان يأمل في إصلاح ما بينهما أو الاستسلام لها والعيش في سلام بدلا من القلق أو ربما أراد أن يأخذ بذلك فسحة من الوقت لتدبير مكيدته ويتمكن من الخلاص منها ، لكنها كانت قد أعدت كل شئ للخلاص منه في تلك الليلة .

خمسة من المماليك كانوا في انتظاره بالحمام أغلقوه عليه وقتلوه وهو مجرد من سلاحه وأعوانه ويقال: إنها أدخلت مملوكا قويا إلى الحمام لينتظره عند دخوله ولكنه لكمه لكمة قوية طرحته أرضا ثم انهالت عليه هي والجوارى بالقباقيب حتى لفظ أنفاسه الأخيرة .

لم يكن موت أيبك هو نهاية المكيدة فهى تود أن تكون مقاليد الأمور بيدها وتخشى أن ينتقم منها أعوانه لذا فقد أرسلت إلى الأمير عز الدين أيبك الحلبى الكبير بخاتم السلطنة تطلب منه أن يتولاها وتتزوجه وأشاعت أن السلطان قد مات فجأة - لكن الحلبى الكبير لم يجسر على ذلك .

انتشر خبر قتل أيبك بين مماليكه وتمكنوا من إجبار الخدم والجوارى على الاعتراف بالحقيقة وقبضوا على شجرة الدر وأرادوا قتلها ولكن المماليك الصالحية رفضوا ذلك ونقلت إلى البرج الأحمر .

تولى المنصور على ابن السلطان أيبك أمور السلطنة وحُملت شجرة الدر إلى أمه في يوم الجمعة ليقتلها الجوارى بنفس الطريقة التي قتلت بها أيبك (بالقباقيب) لتشرب من نفس كأس مكيدتها من امرأة مثلها - حتى ماتت في اليوم الثانى - السبت - وخلعوا عنها ثيابها كاملة وألقوها من سور القلعة عارية حتى أنتنت ثم حملت في قفة ودفنت في قبرها الذي بنته بنفسها .

ويحكى المقريزى أنها حين علمت أنه قد أحيط بها وضعت كثيرا من جواهرها من اللؤلؤ وغيره في الهون وكسرته .

* * *